آيات الأنفس في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

أ.م.د. خالد عبد النبي عيدان الأسدي
كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

الملخَّص:

البحث في كتاب الله العزيز فضل من الله تعالى على عباده؛ إذ يُهيّئ لهم من عنده مَنًّا للبحث ودراسة كتابه المجيد، وهذا لا يناله إلَّا ذو حظٍّ عظيم، ومن أراد أن يسبر غور هذا المنجم العلميّ عليه أن يقطع من وقته ويتخلّى عن انشغالاته الدنيويَّة، فكم يعطي للقرآن من وقته؛ سيُعطيه القرآن الكريم من أسراره، ولذا انبرى كثير من العلماء إلى تدارس العلم واستنباطه من كتاب الله المجيد.

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تنفد علومه، ففي كلِّ آيةٍ من آياته من الأسرار ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وقد اختصَّ هذا البحث بلفظ (الأنفس) المجردة من كلِّ إضافةٍ وبجمعها المعروف بجمع القلّة على وزن (أَفْعُل)، في محاولة لتأصيل معنى هذه اللفظة القرآنيَّة، وتفسير الآيات التي وردت فيها، وتبيان اختلاف معانيها في سياقاتها عند مدرسة أهل الصحابة، وموازنة ذلك بما ورد عند أهل البيت عليهم السلام.

الكلمات المفتاحية:

آيات الأنفس، الدراسة التحليلية

The Verses of "Anfus" in the Holy Quran

An Analytical Study

Asst. Prof. Dr. Khalid Abdul-Nabi Aidan Al-Asadi

College of Islamic Sciences / University of Karbala

Abstract:

Researching the Book of Allah, the Almighty, is a divine favor upon His servants, as He grants them the privilege of studying His Glorious Book. This privilege is attained only by those who are truly fortunate. Anyone wishing to delve into this vast scientific treasury must dedicate time and set aside worldly distractions. The more time one devotes to the Quran, the more it will reveal its secrets. For this reason, many scholars have devoted themselves to studying and extracting knowledge from the Holy Book.

The Holy Quran is an endless source of wonders and knowledge. Every verse contains secrets beyond what the eye has seen or what the heart has conceived. This study specifically examines the term "Anfus" in its absolute form, devoid of any additions, and in its plural form, known as the "plural of paucity" on the pattern of "Af'ul". The research aims to establish the fundamental meaning of this Quranic term, interpret the verses in which it appears, and analyze the variations in its meanings within different contexts, as understood by the School of the Companions, comparing it to the interpretations provided by Ahl al-Bayt (peace be upon them).

Keywords:
Verses of "Anfus," Analytical Study.

المقدِّمة:

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه وحافظ سرِّه، ومبلِّغ رسالاته محمد بن عبد الله، وعلى آله الغرِّ الميامين الطيبين الطاهرين، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وبعد:

فالبحث في كتاب الله العزيز فضل من الله تعالى على عباده؛ إذ يُهيّئ لهم من عنده مَنًّا للبحث ودراسة كتابه المجيد، وهذا لا يناله إلَّا ذو حظٍّ عظيم، ومن أراد أن يسبر غور هذا المنجم العلميّ عليه أن يقطع من وقته ويتخلّى عن انشغالاته الدنيويَّة، فكم يعطي للقرآن من وقته؛ سيُعطيه القرآن الكريم من أسراره، ولذا انبرى كثير من العلماء إلى تدارس العلم واستنباطه من كتاب الله المجيد.

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تنفد علومه، ففي كلِّ آيةٍ من آياته من الأسرار ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وقد اختصَّ هذا البحث بلفظ (الأنفس) المجردة من كلِّ إضافةٍ وبجمعها المعروف بجمع القلّة على وزن (أَفْعُل)، في محاولة لتأصيل معنى هذه اللفظة القرآنيَّة، وتفسير الآيات التي وردت فيها، وتبيان اختلاف معانيها في سياقاتها عند مدرسة أهل الصحابة، وموازنة ذلك بما ورد عند أهل البيت عليهم السلام.

وقد توزَّع البحث على تمهيدٍ وأربعة مباحث، والمباحث حملت عنوانات الآيات المباركة التي بُحث فيها اللفظ، ففي التمهيد: درسنا مفهوم النفس وماهيتُّها، والروح وماهيتُّها، وأقسامهما، والفرق بينهما.

والمبحث الأوَّل: تكلَّم على مفهوم البلاء بنقص الأنفس، وأثر ذلك في المجتمع.

والمبحث الثاني: بيّن عبارة (شُحَّ الأنفس) وماهيَّته، وما آل إليه هذا المركَّب.

والمبحث الثالث: تكلَّم على استيفاء الله للأنفس.

أمَّا المبحث الرابع: فتخصَّص بما تشتهيه الأنفس في الجنَّة.

وانتهى البحث بخاتمة حملت أبرز نتائج البحث، ومن ثمَّ قائمة بالمصادر التي كانت الروافد المعرفيَّة للبحث. والحمد لله ربِّ العالمين.

تمهيد:

منذ أن أنْزل الله تعالى القرآن الكريم على خير خلقه وحافظ سرِّه ومبلِّغ رسالاته محمد بن عبد الله ﷺ؛ أعجبَ العربُ ببلاغته وفصاحته، فقد هزَّ كيانهم وأسكتهم دهرًا من الزمن، حتَّى رَوَوا «فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ حِينَ جَاءَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ) مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْر بنِ حَرْب، والأَخْنَس بْنُ شِرِيْق، وَلَا يَشْعُرُ واحدٌ مِنْهُمْ بِالْآخَرِ. فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَم الصُّبْحُ تَفرَّقوا، فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمْ لِلْآخَرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ لَهُ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا، لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشٍ بِهِمْ، لِئَلَّا يَفْتَتِنُوا بِمَجِيئِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ جَاءَ كُلٌّ مِنْهُمْ ظَنًّا أَنَّ صَاحِبَيْهِ لَا يَجِيئَانِ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَمَّا أَجْمَعُوا جَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا. فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ جَاؤُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا»[1]، وكيف لا وهو في أعلى وأسنى وأطيب ما سَمِعَتْ الأذن، وما خطر على قلب بشر؟!؛ ولذلك صمتَ مَن صمت وأعجب فيه الكثير.

وقد وفَّق الله تعالى عباده الذين اختارهم لحمل علمه وأسرار كتابه للبحث فيه، وتدارسه وكشف مكامنه الثريَّة، ونشرها في أوساط خلقه، فمنهم مَن انبرى لتفسيره، ومنهم مَن حاول جاهدًا كشف القواعد العامة لأصوله ونحوه، ومنهم مَن أجال نظره فيه لكشف جمال بلاغته.

ومن جماليات التحليل القرآني؛ ما جاء في آيات الأنفس المباركة: وهي الآيات القرآنيَّة التي جاءت فيها كلمة (الأنفس) بصيغتها الجمعيَّة بجمع القلَّة التي هي على وزن (أفْعُل) مجردة من أي إضافة؛ أي: مجرَّدة من ضمير الجمع (هم) و(هُنَّ) وغيرها

(١)) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٥١.

من الإضافات، ولسبر غور هذه الآيات المباركة؛ لا بدَّ من بيان المعاني اللغويَّة والاصطلاحيَّة لمفردات العنوان، وبوساطتها نفكّ شفرات ما قد يُسْتغلق داخل مباحث البحث.

المطلب الأوَّل: الأنفس مفهومها وأقسامها

مفهوم الأنفُس:

جمعُ قلَّة على وزن (أَفْعُل)، مفردها (نفس)، وهي مصطلح خاص لما أطلقَ عليه من ذاتيَّة المُحرِّك العام لجسم الإنسان «والنَّفَسُ: التَّنَفُّسُ، أي: خروج النَّسيم من الجَوْف، وشَرِبْتُ الماءَ بنَفَس، وثلاثة أَنَفاسٍ. وكلُّ مُستَراح منه نَفَسٌ. وشيءٌ نَفيسٌ: مُتَنافَسٌ فيه. ونَفِسْتَ به عليّ نَفَسًا ونَفاسةً: ضَنِنْت. ونَفُسَ الشَّيْءُ نَفاسةً، أي: صار نَفيسًا، وهذا المكانُ أَنْفَسُ من ذاك»[١] أي: صار عزيزًا وغاليًا. و«النَّفْسُ: العَظَمة والكِبْر. والنَّفْسُ: الْعِزَّة. وَالنَّفس: الهِمّة، والنَّفْسُ: الأنفة، والنَّفْس: عَينُ الـشَّيْء، وكُنْهُه وجَوهَرُه، والنفسُ: العينُ الّتي تُصيب المَعينَ، والنفسُ: الدّم. والنَّفْس: قَدْرُ دَبْغة. والنَّفْس: الماءُ»[٢]، فكلُّ شيء ثمينٌ فهو نفيس.

وقد أطلق عليها بعضهم (المُخبتة)؛ لأنَّها لم تكن محسوسة أو ملموسة لحواس الإنسان[٣]، ومنهم مَن قال: «إِنَّ النَّفْسَ يعني القلب لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ للجسد يعني بالإثم»[٤]، ومنهم مَن توسَّع في ذلك فجعلها لفظًا دالاً على كلِّ الإنسان[٥]،

(١) ينظر: العين: ٧/ ٢٧١.
(٢) تهذيب اللغة: ١٣/ ٨.
(٣) يُنظر: تفسير مجاهد: ١/ ٧٢٨.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢/ ٣٤٠.
(٥) يُنظر: معانى القرآن، الأخفش الأوسط: ٢/ ٤١٩.

ومنهم مَن رادف بينها وبين الـرُّوح[١]؛ فقد اختلط مفهوم النفس عند المفسرِّين وعلماء الحديث الذين نظروا إلى اللفظ من زاوية سياق واحد.

ماهيَّة النفس في فكر أهل البيت عليهم السلام

جاء مفهوم النَّفس وبيان ماهيَّتها عند الإمـام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بما رواه كميل بن زياد النخعي (رضوان الله تعالى عليه) قال: «سألت مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين أريد أن تعرِّفني نفسي، قال: يا كميل وأيُّ الأنفس تريد أن أعرِّفك؟ قلت: يا مولاي وهل هي إلّا نفسٌ واحدة؟ قال: يا كميل إنَّما هي أربعة: النامية النباتيَّة، والحسيَّة الحيوانيَّة، والناطقة القدسيَّة، والكليَّة الإلهيَّة، ولكلِّ واحدةٍ من هذه خمس قوى وخاصيَّتان: فالنامية النباتيَّة لها خمس قوى: جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة ومربيَّة، ولها خاصيتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد، والحسيَّة الحيوانيَّة لها خمس قوى: سمع وبصر وشمّ وذوق ولمس، ولها خاصيتان: الشهوة والغضب، وانبعاثها من القلب، والناطقة القدسيَّة لها خمس قوى: فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة، وليس لها انبعاث وهي أشبه الأشياء بالنّفوس الملكيَّة ولها خاصيَّتان: النزاهة والحكمة، والكليَّة الإلهيَّة لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذلٍّ، وفقر في غناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيَّتان: الرضاء والتسليم: وهذه التي مبدأها من اللّه وإليه تعود، قال اللّه تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٢]، وقال: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[٣]، والعقل وسط الكلِّ»[٤]، فما خفي عن الناس نجده عند

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ١١٨.
(٢) سورة الحجر: ٢٩.
(٣) سورة الفجر: ٢٨.
(٤) شرح أصول الكافي: ٣/ ٣٨١.

باب مدينة العلم الذي لا يؤتى إلّا منه، ومَن غير أمير المؤمنين عليه السلام يأتي بالقول الفصل؟!.

أنواع النفس في القرآن الكريم: أمَّا أنواع النفس فهي[١]:

١. النفس الأمّارة بالسوء: وهي التي تأمر الإنسان بالسيئات، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

٢. النفس اللَّوامة: وهي التي تندَم بعد ارتكاب المعاصي والذنوب فتلوم نفسها، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٣].

٣. النفس المطمئنَّة: وهي النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي الواصلة إلى مرحلة الاطمئنان والراحة والطاعة التامَّة لأوامر الله تعالى، والمشمولة بعناياته الربانيَّة، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[٤].

٤. النفس الراضية: وهي النفس التي رضيت بما أوتيت، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٥].

٥. النفس المرضية: وهي النفس التي رضي الله (عَزَّ وجَلَّ) عنها، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٦].

---

(١) استنباط أنواع النفس من القرآن الكريم. للباحث.
(٢) سورة يوسف: ٥٣.
(٣) سورة القيامة: ٢.
(٤) سورة الفجر: ٢٧.
(٥) سورة الفجر: ٢٨.
(٦) سورة الفجر: ٢٨.

٦. النفس المُلهَمَة: وهي النفس التي ألهَمَها الله (عَزَّ وجَلَّ)، وهي التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[١].

والفرق بين الأنواع والماهيَّة واضحٌ: أي أنَّ الأنواع تكون إحداها في ذات الشخص، في حين أنَّ الماهيَّة (وهي تقسيمات الإمام علي عليه السلام) تكون كلَّها في جميع الأنـواع؛ أي: كلُّ نوعٍ من الأنـواع المذكورة في القرآن الكريم يحتوى على جميع التقسيمات من الماهيَّة[٢].

المطلب الثاني: مفهوم الروح

مفهوم الروح في فكر أهل البيت عليهم السلام:

رادف العلماء بين الروح والنَّفس ـ كما تقدَّم ـ في حين فرَّق الإمام الباقر عليه السلام بينهما؛ فجاء: «عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم؟ فقال لي: يا جابر إنَّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح، روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوَّة، وروح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى، ثمَّ قال: يا جابر إنَّ هذه الأربعة الأرواح يصيبها الحدثان إلَّا روح القدس فإنَّها لا تلهو ولا تلعب»[٣]، فيشترك الناس في أربع منها، وروح القدس تكون خاصَّة في الأنبياء والأوصياء. ومن ذلك صار الفرق واضحًا بين الروح والنفس؛ فلا ترادف بينهما.

ولتسهيل الأمر بين الروح والنفس: فالروح كأنَّها بطاريَّة السيارة تقوم بتشغيلها ومدِّها بالطاقة الكهربائيَّة؛ أمَّا النفس فهي الآليات التي تحتوي عليها السيارة من

---

(١) سورة الشمس: ٧-٨.

(٢) ينظر: تفسير نور الثقلين: ١/ ٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٩٨.

مِقْوَد وفرامل وأجزاء أخرى، والدليل على ذلك أنَّ الإنسان لمَّا ينام ترتفع روحه من جسده إلَّا أنَّ نفسه تبقى في الجسد فيتحرك يمينًا وشمالًا، وما إن تعود روحه إليه؛ يستيقظ وينهض وتتمُّ عمليَّة الحركة بطاقة الروح وأعضاء النفس.

والبحث سيُخصص في الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة (الأنفس) التي هي على وزن (أفعل) بجمع القلَّة والمجرَّدة من أي إضافة في الآيات المباركة الآتية:

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

(١) سورة البقرة: ١٥٥.
(٢) سورة النساء: ١٢٨.
(٣) سورة النحل: ٧.
(٤) سورة الزمر: ٤٢.

الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٢].

في هذه الآيات المباركة سيعمد البحث إلى سبر أغوارها والولوج إلى خزائنها بالتدبُّر في تحليل معانيها.

المطلب الثالث: بين التفسير والتأويل

توطئة:

انبرى رهطٌ من العلماء للعكوف على تدارس كتاب الله تعالى المجيد ببيان معانيه للذين يستشكل عليهم فهمها؛ وورد ذلك في القرآن الكريم بمصطلحين خاصَّينِ لإيضاح دلالته المباركة وهما (التفسير والتأويل)، وقد اختلط هذان المصطلحان في الدراسات القرآنيَّة، فكان لا بدَّ من التمييز بينهما في هذا البحث؛ لكي نوجّهه في المنحى المراد.

فالتفسير في اللغة: هو مصطلح مشتق من الفسر أو السفر، فالسفر هو «الانكشاف والجلاء، من ذلك: السَّفر، سُمِّي بذلك؛ لأنَّ الناس ينكشفون عن أماكنهم... وسفرت المرأة عن وجهها؛ إذا كشفته، وأسفر الصبح؛ وذلك انكشاف الظلام...»[٣]، فهو الكشف والبيان والإيضاح.

التفسير في الاصطلاح: هو الكشف عن مراد الله تعالى في كلماته بقدر الطاقة

(١) سورة الزخرف: ٧١.

(٢) سورة النجم: ٢٣.

(٣) مقاييس اللغة: ٣/ ٨٢.

البشرية، فتفسير الكلام معناه: الكشف عن دلالات المعنى المراد منه[١].

فهنا لا بدَّ من طرح سؤال مفاده: «هل يُعتبر بيان المعنى الظاهر من اللفظ الذي يتبادر منه؛ تفسيرًا، بحيث يصدق عليه التفسير اللغوي أو لا ؟»[٢].

هناك اتجاهان:

الأول: قال: إنَّ الكشف والبيان المرادين من معنى التفسير يستبطنان افتراض شيء من الغموض، أي بمعنى آخر: يجب أن يكون التفسير لشيء فيه غموض ليُكشف ويُزال الغموض عنه بالتفسير. أمَّا الكلام الذي يحصل منه معنى خارجي مفهوم لا يحتاج إلى تفسير، فهو من باب (توضيح الواضحات من أشكل المشكلات)، وهذا الرأي السائد عند الأصوليين.

الثاني: قال: إنَّ ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيرًا أيضًا، وتوضيح الخفي قد لا يكون تفسيرًا[٣].

فهذا الرأي يرى: أنَّ التفسير يشمل الكلَّ ولا يختصُّ في توضيح الغامض والخفي، فالتفسير عنده يتَّبع السياق، ويبدو أنَّ هذا الرأي أقرب.

التأويل في اللغة: هو من آلَ يَؤولُ، يقول ابن فارس: «الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه... أمَّا الأول؛ وهو مبتدأ الشيء... يُقال: أوَّلِ الحكمَ إلى أهله؛ أي أرجعه ورُدَّه إليهم... وآل يؤول؛ أي: رجع»[٤].

التأويل في الاصطلاح: انقسم المفسِّرون على قسمين في اصطلاح التأويل:

---

(١) يُنظر: الأصول المنهجية للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم: ٣٠.

(٢) علوم القرآن: ٢٠٧.

(٣) يُنظر: علوم القرآن، للحكيم: ٢٠٨.

(٤) مقاييس اللغة: ١/ ١٥٨، يُنظر: المعجم القرآني (دراسة معجمية لألفاظ القرآن الكريم): ١/ ٦٤٨.

١ـ رادف بين التفسير والتأويل: ولعلَّ هذا الاتجاه كان هو السائد عند المفسِّرين القُدامى، فعندهم كلُّ تفسيرٍ تأويل، وكلُّ تأويلٍ تفسير، وعلى هذه النسبة بينهما تساوي.

٢ ـ التفسير شيء والتأويل شيء آخر: وهذا الاتجاه تميَّز به المتأخِّرون والمحدثون، فالفرق بينهما إمَّا في طبيعة المجال المُفَسَّر والمؤوَّل، أو في نوع الحكم الذي يصدره المفسِّر أو المؤوِّل أو يكون في الدليل الذي يستدلُّ به كلٌّ منهما[١]. وهذا الاتجاه أوفق من سابقه؛ لأنَّ القرآن الكريم ميَّز بين المصطلحين، ففي التفسير لم تأتِ إلَّا آية واحدة فقط، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٢]، وكلمة (جئناك) تدلُّ دلالة واضحة على أنَّ التفسير محصور بالله تعالى وتعليمه لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام تباعًا، ولا يحقُّ لأحدٍ ان يُفسِّر من عنده.

أمَّا التأويل: فقد وردت في القرآن الكريم في سبع عشرة آية مباركة، منها في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٣]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَّا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٤]، والمتتبِّعُ للآيات

(١) يُنظر: علوم القرآن، للحكيم: ٢١٦.
(٢) سورة الفرقان: ٣٣.
(٣) سورة آل عمران: ٧.
(٤) سورة النساء: ٥٩.

المباركة التي وردت فيها كلمة التأويل يجد أنَّ التأويل ممكن للناس، أمَّا التفسير فهو خاص، وهذا لا يعني أنَّ التأويل مبسوط لكلِّ الناس؛ بل للراسخين في العلم فقط.

إذن: التفسير خاص بالله تعالى، وهو الذي يأتي بالتفسير للنبيِّ وآله من طريق الوحي، والتأويل لله والراسخين في العلم، وعلى هذا سيسير البحث على وفق المنهج القرآني في التفسير.

فيُقسَّم هذا المبحث بحسب المفاهيم الواردة في آيات الأنفس.

المبحث الأول: البلاء بنقص الأنفس

الطبيعة البشرية تنماز من غيرها بالعقلنة؛ لذا فرض الله عليها العبادة والالتزام بشرائعه وتنفيذ أحكامه، وإذا ما خالفها؛ سيتعرض لبلاء يكون رادعًا لإعادة الإنسان إلى الله، ومن هذه البلاءات ما جاء في قولهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1].

تتكلم عن بلاءٍ واقع لا محالة في يوم ما؛ بوساطة التوكيد باللام والنون الثقيلة، وما فيها من شدَّة صوتيَّة، وهذا البلاء جاء بطريقة الإجمال والتفصيل، إذ أجمل القول في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ثمّ فصَّل القول في ﴿الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، وردفها تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، أي أنَّ هذا البلاء سيُخرج كثير من النَّاس عن جادَّة الصواب والانحراف عن الحقِّ؛ إمَّا لعدم الإطاقة لهذا البلاء أو لضعف الإيمان، لذلك الصبر عليه سيكون صعبًا جدًّا ؛ فجاء التبشير من قِبَلِهِ تعالى للصابرين.

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

تفسير مدرسة الصحابة:

ورد تفسير مدرسة الصحابة لهذه الآية المباركة بآراء متعدِّدة، قال الطبري (ت:٣١٠هـ): «معنى قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، ولنختبرنَّكم. وقد أتينا على البيان عن أنَّ معنى الابتلاء الاختبار، فيما مضى قبل. وقوله «﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ﴾، يعني من الخوف من العدو، و(بالجوع)، وهو القحط، يقول: لنختبرنَّكم بشيءٍ من خوفٍ ينالكم من عدوّكم، وبسَنةٍ تُصيبكم، ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذَّر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم، وموتُ ذراريكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث، فتنقص لها ثماركم، كلّ ذلك امتحان منِّي لكم، واختبار منِّي لكم، فيتبيَّن صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه، والشكّ والارتياب»[١]، فقد اعتمد المفسرِّ على استدعاء المعاني اللغويَّة في تفسير الآية المباركة.

وبعد أن ذكر الرأي الخاصّ به؛ أورد قول الربيع «قال، قد كان ذلك، وسيكونُ ما هو أشد من ذلك»[٢]، إلاّ أنَّ هذا الكلام يحُمل على الجِفر، لأنَّ المتكلم لم يُفصِّل القول في وقوع البلاء في سابقه ولا في مَن يقع لاحقًا، وما دعا الطبري إلى تفسير الآية بالامتحان؛ هو أنَّه فسَّر البلاء (بالابتلاء).

وإلى هذا المعنى ذهب أبو حاتم الرازي (ت:٣٢٧هـ)، والثعلبي (ت:٤٢٧هـ)، والبغوي (ت:٥١٠هـ)، وابن عطية (ت:٥٤٢هـ)[٣].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/ ٢٢٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/ ٢٢١.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٦٣،الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٢/ ٢٢، معالم التنزيل في تفسير القرآن: ١/ ١٨٥، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٢٢٧. وغيرها من التفاسير.

ولكنَّ الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) أشار إلى وقوع المصيبة في البلاء وليس الابتلاء، وذلك في قوله: «﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبنَّكم بذلك إصابةً تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون وتثبَّتون على ما أنتم عليه من الطاعة، وتسلِّمون لأمر اللَّه وحكمه أم لا؟ ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليلٍ من كلِّ واحدٍ من هذه البلايا، وطرف منه ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ المسترجعين عند البلاء؛ لأنَّ الاسترجاع تسليم وإذعان»[1]، وهذا الرأي أقرب من الابتلاء؛ لأنّ البلاء ليس بمعنى الامتحان، إذ الامتحان يأتي بالفتن، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2].

والابتلاء ليس بمعنى البلاء كما فسَّروها؛ لأنَّ الله تعالى أورد الابتلاء وأراد منه الاختبار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[3]. ومبتليكم غير بلوكم، فالبلوى غير الابتلاء، وعادة يأتي الابتلاء للتمحيص كما ورد في الآية المباركة.

ممَّا تقدَّم نفهم أنَّ هذه الأمور التفصيليَّة هي نتيجة لنزول بلاء وليست امتحان للعباد، فلا ابتلاء بعقوبة، وهذه تنتج من طريق نزول البلاء على عصيان أو انحراف عن جادَّة الحق.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/ ٢٠٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٤٩.

تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام

لا نعتمد في تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام على آراء العلماء من هذه المدرسة؛ وإنَّما سنقتصر على روايات النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين (صلوات ربِّي وسلامه عليهم)؛ لأنّ كلام العلماء يُمثِّل أشخاصهم، وكلام الأئمَّة يمثل الدين؛ ولذا الاعتماد على كلام الأئمَّة عليهم السلام هو الذي يمثِّل الخطَّ النبويّ العلويّ الجعفريّ المهدويّ.

وانطلاقًا من قول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لعمر بن يزيد لمَّا سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾[1]، قال «نزلت في رحم آل محمد عليهم السلام، وقد يكون في قرابتك فلا تكونَنَّ ممَّن يقول للشيء إنَّه في شيءٍ واحد»[2]، فلم تخُصَّص الكلمة القرآنيَّة أو الموضوع في شيءٍ واحدٍ، وهذا من باب «إنَّ للقرآن بطنًا وللبطنِ بطنًا، وظهرًا وللظهر ظهرًا...»[3]، ولا يمكن حصر وجوه القرآن الكريم ومراد الله في معنى تستبطنه العقول الناقصة، وقد فسَّر الأئمة عليهم السلام الآية في أكثر من خمسةٍ وجوه وزيادة.

فمن الممكن أنَّ الإمام أورد وجهًا واحدًا للآية المباركة بقدر الطاقة الاستيعابية للسائل ولم يسأله آخر عن المعنى الثاني والثالث؛ فبقي منها كثير من المعاني عند الأئمَّة الأطهار.

فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ

(١) سورة الرعد: ٢١.
(٢) الكافي: ١/ ٦٨.
(٣) تفسير العياشي: ١/ ٢٣.

وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[١] جاء تفسيرها «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ قُدَّامَ قِيَامِ الْقَائِمِ عَلَامَاتٍ بَلْوَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ (عَزَّ وَ جَلَّ): ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، قَالَ: ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ مِنْ مُلُوكِ بَنِي فُلَانٍ فِي آخِرِ سُلْطَانِهِمْ، ﴿وَالْجُوعِ﴾ بِغَلَاءِ أَسْعَارِهِمْ، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ﴾ فَسَادِ التِّجَارَاتِ، وَقِلَّةِ الْفَضْلِ فِيهَا، ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ قَالَ: مَوْتٌ ذَرِيعٌ، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ قِلَّةِ رَيْعِ مَا يُزْرَعُ، وَقِلَّةِ بَرَكَةِ الثِّمَارِ، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عِنْدَ ذَلِكَ بِخُرُوجِ الْقَائِمِ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ هَذَا تَأْوِيلُهُ، إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يَقُولُ ﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾»[٢]، هذا التأويل جاء لسؤال محمد بن مسلم.

وجاء في تفسير آخر للإمام الباقر عليه السلام لهذه الآية المباركة لسؤال جابر بن يزيد الجعفي؛ إذ قال: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ: يَا جَابِرُ ذَلِكَ خَاصٌّ وَعَامٌّ، فَأَمَّا الْخَاصُّ مِنَ الْجُوعِ فَبِالْكُوفَةِ، وَيَخُصُّ اللَّهُ بِهِ أَعْدَاءَ آلِ مُحَمَّدٍ فَيُهْلِكُهُمْ، وَأَمَّا الْعَامُّ فَبِالشَّامِ يُصِيبُهُمْ خَوْفٌ وَجُوعٌ مَا أَصَابَهُمْ مِثْلُهُ قَطُّ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَقَبْلَ قِيَامِ الْقَائِمِ عليه السلام، وَأَمَّا الْخَوْفُ فَبَعْدَ قِيَامِ الْقَائِمِ عليه السلام»[٣]، إذ التفسير ناظر إلى المصداق الحيّ الحاضر إبّان زمان الإمام الباقر عليه السلام، وقد أشار إلى مصداقها الآخر، وهي إحدى علامات الظهور المبارك، ولعلَّه لو سُئل الإمام من غير جابر الجعفي لأجاب بجوابٍ آخر، كما جاءت التأويلات في كثير من الآيات، إذن: لم تكن الآية المباركة ذات دلالة واحدة

(١) سورة البقرة: ١٥٥.
(٢) الغيبة: ٢٥٠، ويُنظر: تفسير العياشي: ١/ ٦٨، والبرهان في تفسير القرآن: ١/ ٣٥٨.
(٣) الغيبة: ٢٥١.

فقط؛ وإنَّما لها ظاهر وللظاهر ظاهر، ولها باطن وللباطن باطن، ولا يعلم ذلك إلَّا الله، والراسخون في العلم وهم آل محمد.

ينتج من تفسير المدرستين: أنَّ مدرسة الصحابة فسَّرت البلاء بالابتلاء، والفرق بينهما واضح، إذ البلاء ينزل بسبب غضبٍ من الله تعالى لسوء أعمال العبد، أمَّا الابتلاء فهو امتحان لغرض ترفيع الإنسان درجة من دون أن يكون قد أذنب ذنبًا، كابتلاء الأنبياء والأوصياء والأولياء، فلم يصدر منهم ذنبٌ، وقد ابتلاهم الله ونجحوا فرفعهم درجات كلٌّ بحسب ابتلائه.

أمَّا البلاء فهو عقوبة تعقب ذنبًا يصدر من إنسان أو مجموعة أو قرية أو بلد، فيتمُّ عقابهم بنزول البلاء عليهم، وهذا شواهده كثيرة في القرآن الكريم، كالبلاء على فرعون وأتباعه بالغرق، ونزول الدم والقمَّل والضفادع والجراد على بني إسرائيل، والبلاء على قوم ثمود وعاد وغيرهم ممَّن أهلكوا ببلاء الله تعالى.

وقد أشار إلى ذلك الإمام الباقر عليه السلام على أنَّه بلاء ينزل على الناس قبيل خروج القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ولم يكن ابتلاءً، وسببه كثرة ذنوب العباد، فيكون في ذلك عدم الأمان فيُخيِّم الخوف على الناس، والجوع بغلاء الأسعار فتُسلب البركة من الطعام، وتسلُّط الفجرة الخونة على رقاب الناس من تُجَّار وحكَّام.

ثمَّ يكون في ذلك نقص (الأنفس): وهو الموت الذريع والمنتشر بين الناس ممَّا يُسبب الهلع، وهذا أحد مصاديق نقص (الأنفس)، ورُبَّما من مصاديق نقص (الأنفس) تغييب الإمام الذي هو عماد الأرض وأمانها، فيُغيِّبه الله تعالى في عباده كي لا يلتجئ إليه أحد، وهذا من أكبر البلاءات التي يُصاب بها الإنسان؛ لأنَّ الله تعالى جعل الإمام أمانًا للأرض ومَن عليها، فتغييبه من البلاء الفادح، ولذا لم يقل: ونقص من (النفوس) بالجمع الكثرة؛ لأنَّ الأئمَّة هم قليلو العدد بالنسبة إلى أهل الأرض،

فكان للفظ (الأنفس) بجمع القلَّة دليل على نقص الأئمَّة التي وقعت مصيبتها على الناس، فسُلبَ الأمان ولا ملجأ للناس يلجؤون إليه أو يلوذون به.

المبحث الثاني: شُحّ الأنفس

الشحيح من: شحَّ يشحُّ شحيحًا، و«الشُّحُ: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة. قال تعالى: ﴿وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ﴾(١)، و قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾(٢). يقال: رجل شَحِيحٌ، و قوم أَشِحَّةٌ، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾(٣)، ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾(٤). وخطيب شَحْشَحٌ: ماض في خطبته، من قولهم: شَحْشَحَ البعير في هديره»(٥)، فهو بخلٌ في الشيء وحرصٌ عليه.

وتبقى هذه الكلمة حبيسة السياق وتبعيَّة القرينة لتعطي المعنى العام والدقيق للبخل والحرص على الشيء المقرون فيها وبمعيَّتها، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٦).

تفسير الآية في مدرسة الصحابة:

تنماز تفاسير مدرسة الصحابة بالنظر إلى السياق اللغوي وأسباب النزول في تفسير الآيات القرآنيَّة، ولم تتعدَ ذلك في حدود التفسير النظري الخاص بالمفسِّر،

(١) سورة النساء: ١٢٨.
(٢) سورة الحشر: ٩.
(٣) سورة الأحزاب: ١٩.
(٤) سورة الأحزاب: ١٩.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٤٤٦.
(٦) سورة النساء: ١٢٨.

ولم تبنِ تفسيرها على ما يرد عن الصحابة على أنَّه هو التفسير الحقيقي؛ وإنَّما يأتون به عرضًا على أنَّه مأثورٌ للاستئناس، ويبقى نظر المفسِّر هو الحاكم على دلالة الآية القرآنيَّة المباركة.

ففي تفسير هذه الآية من سورة النساء الشريفة أورد الطبري (خمسة عشر) تفسيرًا كلَّها ناظرة إلى نشوز المرأة، وما يتعلَّق بطلاقها ـ من أيَّام ونصيب ونفقة ـ في إطار وحدود الآية المباركة[1]، ولم يخرج عن ذلك إلى ما خلف الآية وأنهّا لا تحُدَّد بموضوعٍ واحد، وكأنَّ هذه الآية هي آية من آيات الأحكام ولا تُفسَّر في غيرها.

ولا يخرج الزمخشري عمَّا جاء به الطبري في تفسيره لهذه الآية، وقد قال في تركيب (الأنفس الشح): «قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ﴾ الشُّحَّ ومعنى إحضار الأنفس الشُّحِّ أنَّ الشحَّ جعل حاضرًا لها لا يغيب عنها أبدًا ولا تنفك عنه، يعنى أنَّها مطبوعة عليه، والغرض أنَّ المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها، وأحب غيرها، وَإِنْ تُحْسِنُوا بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهنَّ وأحببتم غيرهنَّ، وتصبروا على ذلك مراعاةً لحقِّ الصحبة، وَتَتَّقُوا النشوز والإعراض وما يؤدِّي إلى الأذى والخصومة؛ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ من الإحسان والتقوى خَبِيرًا، وهو يثيبكم عليه»[2]، أي: ما شحَّت المرأة على نفسها.

وإلى هذا المعنى ذهب غير واحد من المفسِّرين الممثِّلين لمدرسة الصحابة[3]؛

---

(١) يُنظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٩/ ٢٧٩ـ٢٨٣.

(٢) الكشاف: ١/ ٥٧١.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٠٨١، والكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٣/ ٣٩٦، والوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٢/ ١٢٥، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن: ١/ ٧٠٨، ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: ١١/ ٢٣٦. وغيرها من التفاسير.

إذ لم يخرجوا عن إطار السياق الذي ورد فيه تركيب (الأنْفُس الشُّح).

تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

نسير على المنهج الذي سرنا عليه في الآية السابقة؛ إنَّنا لا نأخذ تفسير الآية المباركة إلَّا من روايات العترة الطاهرة (صلوات ربِّي وسلامه عليهم أجمعين)، وهم الذين أمرنا الله ورسوله بأن نأخذ منهم حصرًا، فقد ورد تفسير هذه الآية المباركة وبالتحديد (الأنفس الشح) ما جاء «عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَوَجَدْتُهُ مُفَكِّرًا يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، قُلْتُ: يَا مَوْلَايَ مَا لِي أَرَاكَ مُفَكِّرًا؟ قَالَ: فِي مَوْلُودٍ يَكُونُ مِنْ ظَهْرِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ وُلْدِي، وَهُوَ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ يُضِلُّ بِهَا أَقْوَامًا، وَيَهْدِي بِهَا آخَرِينَ، أُولَئِكَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَعَ أَبْرَارِ هَذِهِ الْعِتْرَةِ، فَقُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ، مِنَ الرَّجْعَةِ الْبَيْضَاءِ وَالْكَرَّةِ الزَّهْرَاءِ، وَإِحْضَارِ الْأَنْفُسِ الشُّحِ وَالْقِصَاصِ وَالْأَخْذِ بِالْحَقِّ وَالْمُجَازَاةِ بِكُلِّ مَا سَلَفَ، ثُمَّ يَغْفِرُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ»[1]، فأشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بأنَّه هو الممثِّل عن الأنفس الشُّح، وقد شحَّ ظهوره ووجه عن الناس مع حرص الله تعالى عليه وحفظه من كل شيطان رجيم ومن الناس. وهذا ما كشفت عنه الرواية من أن الأنفس الشح هم آل محمد وكل إمامٍ في زمانه إذا يبتلي الله الناس به يشحّه عنهم ويغيِّبه وبعد الابتلاء والمجيء بالجزاء يُحضرهم الله تعالى لإقامة الحُجَّة على الناس.

ومن المؤيدات لهذا الرأي؛ ما جاء في الحديث القدسي في قوله تعالى: «يَا مُحَمَّدُ، وَمَنْ مَلَأَهُ هَمُّ دَيْنٍ مِنْ أُمَّتِكَ، فَلْيَنْزِلْ بِي وَلْيَقُلْ يَا مُبْتَلِيَ الْفَرِيقَيْنِ: أَهْلِ الْفَقْرِ وَأَهْلِ الْغِنَى، وَجَازِيَهُمْ بِالصَّبْرِ فِي الَّذِي ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ، وَيَا مُزَيِّنَ حُبِّ الْمَالِ عِنْدَ عِبَادِهِ،

(١) الهداية الكبرى: ٣٦٢.

وَمُلْهِمَ الْأَنْفُسِ الشُّحَ وَالسَّخَا، وَفَاطِرَ الْخَلْقِ عَلَى الْفَظَاظَةِ وَاللِّينِ، غَمَّنِي دَيْنُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، وفَضَحَنِي بِمَنِّهِ عَلَيَّ بِهِ وَأَعْيَانِي بَابُ طَلِبَتِهِ إِلَّا مِنْكَ يَا خَيْرَ مَطْلُوبٍ إِلَيْهِ الْحَوَائِجُ، يَا مُفَرِّجَ الْأَهَاوِيلِ، فَرِّجْ هَمِّي وَأَهَاوِيلِي فِي الَّذِي لَزِمَنِي مِنْ دَيْنِ فُلَانٍ بِتَيْسِيرِكَهُ لِي مِنْ رِزْقِكَ، فَاقْضِهِ يَا قَدِيرُ، وَلَا تُهِنِّي بِتَأْخِيرِ أَدَائِهِ، وَلَا بِتَضْيِيقِهِ عَلَيَّ، وَيَسِّرْ لِي أَدَاءَهُ، فَإِنِّي بِهِ مُسْتَرَقٌّ فَافْكُكْ رِقِّي مِنْ سَعَتِكَ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَغِيضُ أَبَدًا، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ صَرَفْتُ عَنْهُ صَاحِبَ الدَّيْنِ، وَأَدَّيْتُهُ إِلَيْهِ عَنْهُ»[1]، فالأنفس الشح: هي الأنفس الملهمة من الله تعالى بالعلم والمعرفة، ومَن غيرهم (صلوات الله عليهم) أن يُلهموا بالعلم اللَّدنِّي؟!، ولذا نجد هذا الرأي أنَّه أحد مصاديق الأنفس الشح، ولم نقل: أنَّ المعنى الأوَّل مُقصى؛ وإنَّما هو الآخر مصداق من مصاديق الأنفس الشح، وأهل البيت عليهم السلام مصداقٌ آخر له. والروايات التي تُشير إلى معنى البخل ؛ ناظرة إلى النفس الإنسانية وهي إحدى مصاديق الشحّ، وهذا لا يمنع من أنَّ الأنفس الشح هي المصداق الأوفر في هذه الآية المباركة من باب أنَّها حريصة على الدِّين وشحيحة بالحفاظ عليه.

ربَّما جاء تركيب (الأنفس الشح) على سبيل الجملة الاعتراضية، وهي من أساليب العرب التي يُؤتى بها لغرض لفت النظر والاهتمام بالمذكور، فقد أشار إليهم سبحانه وتعالى ليؤكِّد مكانتهم العليا من جهة؛ ويؤيِّد حضورهم في كلِّ زمان ومكان بأمره سبحانه وفي أي موقف، وأشار إلى ذلك الإمام الهادي عليه السلام في قوله من الزيارة الجامعة الكبيرة المباركة: «ذِكْرُكُمْ فِي الذّاكِرينَ، وَاَسْماؤُكُمْ فِي الْاَسْماءِ، وَاَجْسادُكُمْ فِي الْاَجْسادِ، وَاَرْواحُكُمْ فِي الْاَرْواحِ، وَاَنْفُسُكُمْ فِي النُّفُوسِ، وَآثارُكُمْ فِي

(١) المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية): ١٧٣. ويُنظر: الجواهر السنية في الأحاديث القدسية: ٣٥٤. وبحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ٩٢/ ٣٢٠، وجامع أحاديث الشيعة: ٢٣/ ٧٨٨.

الأثارِ، وَقُبُورُكُمْ فِي الْقُبُورِ»[١]، ومن اللافت للنظر؛ أنَّ الإمام الهادي عليه السلام ذكر أهل البيت بالجمع القليل، فلم يقل: ونفوسكم في النفوس، على الرغم من أنَّهم أربعة عشر معصومًا، وجمع القلَّة ينتهي للعدد تسعة، فكانت الإشارة ناظرة إلى القلة منهم والكثرة من الخلق، فكانت عبارة الإمام دقيقة جدًّا (أنفسكم) بالقلَّة، و(النفوس) بالكثرة، فإحظار الأنفس الطاهرة (وهم محمد وآل محمد) من مصاديقها ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا﴾[٢]، وهو إحضارهم (صلوات ربِّي وسلامه عليهم أجمعين) فهم الأنفس الشحّ التي يأتي بها الله تعالى شاهدة على العباد والخلق أجمعين.

المبحث الثالث: الله تعالى يتوفَّى الأَنْفُس

وكَّل الله تعالى لملك الموت قبض الأرواح من الناس جميعًا، وكذلك سحب النفوس منهم، وهذا جارٍ في جميع الناس، وقد درج المفسِّرون هذا الأمر كله لملك الموت، ولم يُفرِّقوا بين الناس والبشر الذين اختارهم الله تعالى على خلقه وجعلهم الوسطاء بينه وبين ما خلق.

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

(١) مفاتيح الجنان: ٣٤٣.
(٢) سورة النساء: ٤١.
(٣) سورة الزمر: ٤٢.

تفسير مدرسة الصحابة لهذه الآية المباركة:

كما تقدَّم في البحث التمهيدي مرادفة مدرسة الصحابة للنفس والروح؛ فها هم يُرادفون ذلك في تفسيرهم ليكن ما أوردوه في المعاني مطبَّقًا في تفسيرهم، قال الطبري في تفسير هذه الآية المباركة: «...إِنَّهُ يُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ شَيْءٌ سِوَاهُ؛ فَجَعَلَ ذَلِكَ خَبَرًا نَبَّهَهُمْ بِهِ عَلَى عَظِيمِ قَدْرَتِهِ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فَيَقْبِضُهَا عِنْدَ فَنَاءِ أَجَلِهَا، وَانْقِضَاءِ مُدَّةِ حَيَاتِهَا، وَيَتَوَفَّى أَيْضًا الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، كَمَا الَّتِي مَاتَتْ عِنْدَ مَمَاتِهَا﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ذِكْرُ أَنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَلْتَقِي فِي الْمَنَامِ، فَيَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَرَادَ جَمِيعُهَا الرُّجُوعَ إِلَى أَجْسَادِهَا أَمْسَكَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ عِنْدَهُ وَحَبَسَهَا، وَأَرْسَلَ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى أَجْسَادِهَا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَذَلِكَ إِلَى انْقِضَاءِ مُدَّةِ حَيَاتِهَا، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا يَعْقُوبُ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الْآيَةَ، قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَ أَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ، وَأَرْوَاحِ الْأَمْوَاتِ، فَيَتَعَارَفُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَعَارَفَ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجْسَادِهَا»[1]، فركَّز المفسرِّ على النوم وكيفيَّة سحب الروح من الجسد وإعادتها عند اليقظة، فكان المورد عنده هو الوفاة.

وإلى هذا المعنى ذهب جلُّ المفسِّرين من مدرسة الصحابة[2]، وقد ذكر أبو حاتم الرازي رواية «عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ)

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٠/ ٢١٥.

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٣٠٥، والكشف والبيان: ٤/ ١٢٩، وتفسير الراغب الأصفهاني: ٥/ ٥٠٣، ومعالم التنزيل: ٤/ ٩١، والكشاف: ٣/ ٥٠٩، والجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣٧٧، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٥/ ٤٤. وغيرها.

حِينَ كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَرْقُدَ، قَالَ كَلامًا لَمْ نَفْهَمْهُ، قَالَ: فَسَأَلْتُهُ، عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ تَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَتُمْسِكُ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ، وَتُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّانِي، فَإِنْ أَنْتَ تَوَفَّيْتَنِي فَاغْفِرْ لِي، وَإِنْ أَنْتَ أَخَّرْتَنِي فاحفظني»[١]، وهذه الرواية في غاية الأهميَّة؛ إلّا أنَّ المفسِّر لم يُعقِّب عليها.

وقد فرَّق الفخر الرازي بين النفس المقبوضة: وهي التي تُقبض من قبل الله تعالى عند الموت، ولا ترجع إلى الإنسان، وبين النفس المُرسلة: وهي التي تقبض عند النوم وتُرسل عند اليقضة[٢]، ولم يمنع هذا من إقراره بترادف الروح والنفس.

تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

خير ما نذكره في هذا المضمار قول سيدنا عيسى عليه السلام روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم عليها السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣]، ولم يقل: توفيتُ أو توفتني الملائكة.

وقد أشار إلى ذلك خير الخلق ومعدِن الصدق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في دعائه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ تَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَتُمْسِكُ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ، وَتُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّانِي، فَإِنْ أَنْتَ تَوَفَّيْتَنِي فَاغْفِرْ لِي، وَإِنْ أَنْتَ أَخَّرْتَنِي فاحفظني»[٤]، فنسب استيفاء الأنفس بيد الله تعالى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٠/ ٣٢٥٢.

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٥٦.

(٣) سورة المائدة: ١١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٠/ ٣٢٥٢.

وممَّا يُؤيِّد ذلك قوله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]، وفي الآية المباركة من التأكيدات الخبرية ما يُؤكِّد تولِّي الله تعالى بنفسه قبض الأنفس الخاصَّة وهم الأنبياء والأولياء؛ ولذا قال الإمام زين العابدين عليه السلام لعبيد الله بن زياد: «... وَعَرَضَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَقَالَ لَهُ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ قَتَلَ اللَّهُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ؟ فَقَالَ: كَانَ لِي أَخٌ يُسَمَّى عَلِيًّا فَقَتَلَهُ النَّاسُ. قَالَ ابْنُ زِيَادٍ: بَلْ قَتَلَهُ اللَّهُ. فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فَغَضِبَ ابْنُ زِيَادٍ وَقَالَ: لَكَ جُرْأَةٌ عَلَى جَوَابِي، وَفِيكَ بَقِيَّةٌ لِلرَّدِّ عَلَيَّ، اذْهَبُوا بِهِ وَاضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَتَعَلَّقَتْ بِهِ زَيْنَبُ عَمَّتُهُ، فَقَالَتْ يَا ابْنَ زِيَادٍ حَسْبُكَ مِنْ دِمَائِنَا..»[2]، ولم يقل عليه السلام: يتوفى النفوس، وهو بصدد بيان استيفاء النفس بشكل عام، إلّا أنَّ الإمام كان قاصدًا إلى استشهاده بهذه الآية المباركة.

نُريد القول: إنَّ الأنفس في هذه الآية المباركة (بجمع القلَّة) من مصاديقها هم عليةُ المسلمين، وهم محمد وآل محمد؛ والله تعالى هو الذي يتوفَّاهم بنفسه بتأكيد رسول الله صلى الله عليه وآله بالحديث الذي ذكرناه، وعُضِّد بالآيات القرآنية المباركة ورواية الإمام زين العابدين عليه السلام.

وما ذكرناه هو مصداق واحد من مصاديق الآية المباركة، وهذا لا يمنع من إيراد المصاديق الأخرى كما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في ردِّه على سؤال السائل: «﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَ جَلَ) ﴿قُلْ

---

(١) سورة آل عمران: ٥٥.

(٢) إعلام والورى بأعلام الهدى: ٢٥٢، ويُنظر: شرح أصول الكافي: ٣/ ١٠٦، ٦/ ٢٣.

يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَ جَلَّ) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ وَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾، وَعَنْ قَوْلِهِ (عَزَّ وَ جَلَّ) (وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ)، وَقَدْ يَمُوتُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي جَمِيعِ الْآفَاقِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) فَكَيْفَ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ أَعْوَانًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقْبِضُونَ الْأَرْوَاحَ بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ لَهُ أَعْوَانٌ مِنَ الْإِنْسِ يَبْعَثُهُمْ فِي حَوَائِجِهِ، فَتَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَيَتَوَفَّاهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ مَا يَقْبِضُ هُوَ وَيَتَوَفَّاهَا اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ»[1]، فكان الجواب على قدر ما يُريده السائل، ولو سأله آخر لوجدنا جوابًا آخر بقدر الطاقة التي يحملها السائل، وقد أُمِروا عليهم السلام أن يُكلِّموا النَّاس على قدر عقولهم.

وقد سُئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآيات الشريفة فقال: «﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾، و قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾، فإن الله تبارك وتعالى يدبِّر الأمور كيف يشاء، ويوكِّل من خلقه من يشاء بما يشاء، أمَّا ملك الموت فإنَّ الله يوكِّله بخاصَّة من يشاء من خلقه، ويوكِّل رسله من الملائكة خاصَّة بمن يشاء من خلقه، والملائكة الذين سمَّاهم الله (عزَّ ذكره) وكَّلهم بخاصَّة من يشاء من خلقه، إنَّه تبارك وتعالى يدبِّر الأمور كيف يشاء، وليس كلُّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسِّره لكلِّ الناس، لأنَّ منهم القوي والضعيف، ولأنَّ منه ما يُطاق حمله، ومنه ما لا يُطاق حمله، إلَّا أن يسهل الله

(١) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ١/ ٣٥٥.

له حمله، وأعانه عليه من خاصَّة أوليائه، وإنَّما يكفيك أن تعلم أنَّ الله هو المحيي المميت، وأنَّه يتوفَّى الأنفس على يديّ من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم، قال السائل: فرَّجت عنِّي يا أمير المؤمنين، فرَّج الله عنك يا أمير المؤمنين، ونفع الله المسلمين بك»[1]، ولو أنعمنا النظر في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لوجدناه يحمل من الحشد المعنوي ما يحمل، ففي قوله عليه السلام: (فإنَّ الله تبارك وتعالى يدبِّر الأمور كيف يشاء)، قد أجمل المعاني جميعها، ومن هذه المعاني ما ذهبنا إليه من إيراد مصداق الأنفس.

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٥/ ٨٥٥، ويُنظر: بحار الأنوار: ٩٠/ ١٣١.

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقة محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد.

بعد هذه الرحلة في آيات الذكر الحكيم وسبر أغوار أسرارها التفسيرية؛ نتج عن البحث الآتي:

١ـ حاول البحث النأي بنفسه عن التفسير بالرأي قدر الإمكان وإقصاء مَن قال برأيه في كتاب الله المجيد. [ولكننا وجدنا بعض الالتفاف على الأدلَّة واستنطاقها بما لا يظهر منها، وتحميلها ما ليس فيها].

٢ـ اعتمد البحث على تفاسير مدرسة الصحابة المعتمدة وترك ما دون ذلك.

٣ـ ركَّز البحث على تفسير أهل البيت عليهم السلام حصرًا في تفسير الآيات المباركة، ولم يذكر آراء المفسِّرين في مضمار الكلام في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، اعتقادًا منه بأنّ التفسير منهم حقٌّ ومن غيرهم يُبنى على الظن، والظن لا يُغني من الحقِّ شيئًا.

٤ـ أكَّد البحث المفهوم العام للآيات المباركة ووحدة الدلالة المركزية من جهة؛ وتعدد المصاديق والتمثُّلات من جهة أخرى، فالآية المباركة على وفق أقوال أهل البيت لها ظاهر وللظاهر ظاهر، ولها باطن وللباطن باطن، فلم يقطع البحث بالمعنى للآية؛ لأنَّ تمثّلاتها ومصاديقها جارية في كلِّ زمانٍ ومكان.

٥ـ آيات الأنفس المباركة دلالتها المركزيَّة على المفهوم العام للمقامات العالية، لذلك جاءت بصيغة جمع القلَّة، وهي ناظرة للعددين بين الكبرى والصغرى.

٦ـ مصاديق آيات الأنفس في زمن الأنبياء هم الأنبياء وأوصياؤهم عليهم السلام، وفي زمن أهل البيت هم أهل البيت عليهم السلام، ولذا فهي جارية إلى مقام صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الاختصاص، محمد بن محمد المفيد (٤١٣هـ)، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، إيران، ط١، ١٤١٣هـ.

٢. الأصول المنهجية للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم، د. مرتضى جمال الدين، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة، العراق، ط١، ٢٠١٦م.

٣. إعلام والورى بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٥٤٨هـ)، المكتبة الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٩٠هـ.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٥. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (١١١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٦. البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم بن سليمان البحراني (١١٠٧هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٦هـ.

٧. تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي (٣٢٠هـ)، المطبعة العلمية، طهران، ط٢، ١٤٢٢هـ.

٨. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٩. تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر

التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

١٠. تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (١٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

١١. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣ه.

١٢. تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (١١١٢هـ)، إسماعيليان، قم، إيران، ط٤، ١٤١٥هـ.

١٣. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٤. جامع أحاديث الشيعة، أغا حسين البروجردي (١٣٨٠هـ)، منشورات فرهنك سبز، طهران، إيران، ط١، ١٤٢٨هـ.

١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٦. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٧. الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن الحسن الحر العاملي

(١١٠٤هـ)، منشورات دهقان، طهران، ط٣، ١٤٢٢هـ.

١٨. روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، محمد تقي المجلسي (١١٧٠هـ)، مؤسسة كوشنابور للثقافة الإسلامية، قم، إيران، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٩. شرح أصول الكافي، محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (صدر المتألهين) (١٠٥٠هـ)، مؤسسة الأبحاث الثقافية، طهران، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٠. علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الحكيم، النجف الأشرف، العراق، ط٥، ٢٠١٠م.

٢١. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

٢٢. الغيبة، محمد بن إبراهيم بن أبي زينب النعماني (٣٦٠هـ)، نشر الصدوق، طهران، ط١، ١٣٩٧هـ.

٢٣. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٤، ١٤٠٧هـ.

٢٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٥. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق (٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

٢٦. مجموع الفتاوى، أحمد بن تيمية الحرَّاني (٦٢٨هـ)، دار طيبة، المدينة المنورة، السعودية، ط٣، ١٤١٤هـ.

٢٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٨. المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية)، إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (٩٠٥ هـ)، دار الرضي(زاهدي)، قم، إيران، د.ط: ١٤٠٥هـ.

٢٩. معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٠. معانى القرآن، أبو الحسن المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ)، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م.

٣١. المعجم القرآني (دراسة معجمية لألفاظ القرآن الكريم)، د. حيدر علي نعمة، د. أحمد علي نعمة، مطبعة السيماء، بغداد، د. ط، ٢٠١٣م.

٣٢. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

٣٣. مفردات ألفاظ القرآن، حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، دار القلم، دمشق، سوريا، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٤. الهداية الكبرى، حسين بن حمدان الخصيبي (٣٣٤هـ)، مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤١٩هـ.

٣٥. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي

الواحدي النيسابوري الشافعي (٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.